المجلة العربية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Arab Journal for Humanities and Social Sciences
Impact factor isi 1.651

العدد الثالث والعشرون / شباط 2024

الشّعراء نُقَّاداً "أبو تمَّام أُنموذجا"

حمد جاعد حسين الطلب

باحث في مرحلة **الدكتوراه** في جامعة الجنان– كلية الآداب– قسم اللغة العربية

الملخّص .

المقدِّمة:

ممّا لا خلافَ فيه بين الباحثين والنُّقّادِ ودارسي الأدب أنَّ العصر العبّاسيُّ يمثِّلُ العصرَ الذَهبِيَّ للأمّةِ العربيّة في شتّى مناحي الحياة وضُروب الفكر والأدب، حتّى تكاد هذه المقولة تكونُ محطَّ إجماعِهم.

ولمّا كان الأدب رصداً للواقع ومُنتَجاً من مُنتَجاته وحاملاً لما يظهرُ في كلِّ عصرٍ من مظاهرَ جديدةٍ للحياة وتيّارات فكريّةٍ وثقافيّة؛ كان لا بدَّ أن تظهرَ هذه التّغييرات والتّحوُّلات الفكريّة على صفحةِ الأدب.

وصحيحٌ أنَّ التَّغييرات الأولى في مجال الأدب – ولا سيَّما الشِّعر – حدثت في صدر الإسلام عندما انتقلَ العرب من بواديهم إلى الحواضر، وخرجوا إلى أقاليم جديدة، فمالت ألفاظ الشّعر وعباراتُه إلى الرِّقّة والعُذوبةِ، واتّسعَت موضوعاته؛ غير أنَّ هذه التّغييرات كانت طفيفةً لم ينتج عنها الخُروج على الموضوعات التّقليديّة، ولم تُشكِّل تغييرات فنِّيّةً جذريّةً تمسُّ جوهر الشّعر، فظلَّ في إطار الحُدود الّتي رسمِها الجاهليُّون والخطُط الّتي اختَطُّوها، وظلَّ الشِّعرُ مُحافظاً على روح البداوة القديمة في بناء القصيدة وفي الصّياغة الشّعريّة والمعاني. وظهر في الشّعرِ تيّاران لا يكاد مؤرّخو الأدب يخرجون عن تقسيم الشّعر والشُّعراء على أساسِهما: تيّار التّقليد، ويضمُّ طائفةً من الشّعراء الّذين حافظوا على النَّهج القديم للقصيدة؛ وتيّار التّجديد، وظهر هذا التّمايز بين الفئتين واضحاً في القرن الثّالث الهجريّ عندما ظهر شعراء ابتعدوا عن الصّياغة الشّعريّة الّتي جرى عليها شُعراءُ الجاهليّة وصدر الإسلام، وكان من هؤلاء الشُّعراء ابن المعتزِّ وأبو تمّام.

ورافقت هذه الحركة الإبداعيّة حركةٌ نقديّةٌ مُوازية قادَها علماءُ العربيّة والشُّعراء أنفسُهم؛ لأنَّ الشّاعر في هذا العصر امتلك ثقافة أدبيّة وفكريّة واسعة نتيجة ما ظهر في عصره من صِراع بين القديم

والجديد وتيّارات فكريّة وفلسفيّة، وكان الشّاعر شاهداً على هذه المرحلة وكلُّ ما يجري فيها من نقاشات كانت رافداً لمضامين جديدة في الشّعر، لم يعهدها القدماء، فتبدَّلت – في العصر العبّاسيّ – موضوعات الشّعر ومعانيه، ومن ثَمَّ استدعت تبدُّلاً في الألفاظ والصّياغة الشّعريّة وبناء القصيدة أيضاً، ولم يقف الشّاعر عند حدود النّظم، وتجاوز ذلك إلى حدود النّقد، ودخَل إلى عالمِه، وصار هو النَّاقد الأوّل لما يكتب. وكان أبو تمّام من هؤلاء الشّعراء الّذين جمعوا بين الإبداع والنّقد، فقد اشتغل بالنَّقد الأدبيّ، وبثَّ فيه آراءَه وتوجيهاتِه.

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

شهدَ العصر العباسي نموّاً متزايداً في ميادين الفكر والثَّقافة، إذ تزايدت مجالات الفكر والتأمُّل والبحث، وازداد الاختلاط بالأمم الأخرى، وقد أدّى ذلك دوراً كبيراً في عملية التّمازج الحضاري عبر امتزاج الثقافات المتنوعة كاليونانية والفارسية، فقد حاول الأدباء والشّعراء أن يغنوا أفكارهم بما يسمعون وبما يصلهم من الحضارات الأخرى، وسعوا إلى الترجمة، وقد أدت دوراً بارزاً لا يستهان به في تقدّم المستوى الفكري.

وباستفادة الأدباء والشعراء مما وصل إليهم بدأت مهمّتهم ترتقي، فتجاوزوا حدود نظم الشِّعر، ودخلوا في عالم النَّقد، فراحَ الشاعر يخوض غمار النَّقد بكلِّ ما أوتي من علمٍ وفطنةٍ، ولا سيَّما أنه هو ربُّ الشّعر، فكان أولى به أن يكون النَّاقد الأوّل لما يكتب، فقد ارتقى مستوى النَّقد وسما به الشعراء درجة تعلو ما كان عليه فيما سبق، فاتّجهوا بالنّقد نحو الدقة في إصدار الأحكام النَقدية، والوضوح في ذكر الأسباب والعلل، والتي بمقتضاها يحكم على العمل الأدبي، ولا سيَّما أنه كان قد خطا خطواتٍ رشيدة في عصر صدر الإسلام، واتبع مناهج أكثر تحديداً، وأوضح أحكاماً مما كان عليه في العصر الجاهلي[1]، إلَّا أنَّه في هذا العصر بدأت ملامحه تتضّح أكثر فأكثر، وحدوده ترتسم، وتنشأ مصطلحات نقدية لم يُعهَد تداولها من قبل.

وهكذا بدا العصر العباسي ذا نهضة فكرية خلاَّقة، شملت الشِّعر والنَّقد، بل كلَّ مناحي الحياة، وحظيت ساحته الثقافية بإبداعاتٍ عظيمة الأثر في مسيرة الأدب العربي.

ومن شعراء العصر العباسي الذين اشتغلوا بالنَّقد الأدبي، وبثُّوا آراءهم وتوجيهاهم، الشاعر أبو تمَّام.

---

[1] النقد الأدبي ومقاييسه خلال عهد الرَّسول صلّى الله عليه وسلَّم وعصر الخلافة الرّاشدة، محمّد عارف محمود حسين، الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوَّرة، السّنة الخامسة عشرة. العدد الثّامن والخمسون. ربيع الأخر–جمادى الأولى–جمادى الأخرة 1403هـ، 286.

الفصل الأوّل:

أولاً: تعريف النَّقد:

لغةً: نَقَدَ الدَّراهِم وانتقدَها: أخرج مِنها الزَّيف، وبابُهُما نَصَرَ، ودِرهمٌ (نقدٌ)؛ أي وازِنٌ جيّدٌ، وناقدَهُ: ناقشهُ فِي الأمرِ[2].

اصطلاحاً: النَّقدُ: تعبيرٌ عن موقفٍ كلّيٍّ متكامل في النَّظرة إلى الفنِّ عامّةً أو إلى الشِّعرِ خاصّةً، يبدأ بالتَّذوُّق؛ أي: القدرة على التَّمييز، ويعبُرُ منها إلى التَّفسير والتَّعليل والتَّحليل والتَّقويم خطواتٍ لا تغني إحداها عن الأخرى، وهي متدرّجة على هذا النَّسق؛ كي يتَّخذَ الموقف نهجاً واضحاً، مؤصَّلاً على قواعد جزئيّة أو عامّة، مؤيَّداً بقوّة المَلَكةِ بعد قوّة التَّمييز[3].

وفي النَّقد الأدبيّ الحديث: النّقدُ: "استعمالٌ مُنّظَّمٌ للتِّقنيَّات غير الأدبيّة ولضُروب المعرفة غير الأدبيَّة أيضاً، في سبيل الحصول على بصيرة نافذة في الأدب"[4].

ثانياً: مراحل العمليَّة النَّقديَّة:

1) تبدأ عملية النَّقد بالتساؤل عما قُرِئ؛ أأدب هو أم ليس أدباً؟
   والذي يحدِّد ذلك هو الإطار الفنّيُّ للعمل الأدبيّ؛ أي: العمل الأدبيّ في مجموعه.
2) إن كان ما قرأه أدباً فعليه أن يحدِّدَ الأصول الفنيّة الّتي على أساسها ينتقد هذا الأدب.
3) بعد ذلك يقرّر إن كان لهذا الأدب قيمة أم لا قيمة له، فالقيمة غير متلازمة مع الأدب.
4) يسعى النَّاقد إلى معرفة خبايا الشّاعر؛ لأنَّ نفسَ الشّاعر هي نقطةُ البدء، ويهتمُّ النّاقد أوّل الأمر بأن يصدر على العمل الأدبيّ حكمَه، لا من خلال رغباته الخاصّة وغايته الواضحة،

---

[2] مختار الصحاح، زين الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفيّ الرّازي (ت 666هـ)، تحقيق يوسف الشّيخ محمّد، المكتبة العصرية – الدّار النّموذجية، بيروت – صيدا، ط 5، ، 1420هـ/ 1999م، 317. ولسان العرب، أبو الفضل، جمال الدين محمّد بن مكرم بن عليّ بن منظور الأنصاريّ الرُّويفعيّ الإفريقيّ (ت 711هـ)، دار صادر – بيروت، ط 3، 1414 هـ، 425/3.

[3] تاريخ النّقد الأدبيّ عند العرب، د. إحسان عبّاس (ت 1424هـ)، دار الثقافة، بيروت، ط 4، 1983، 8.

[4] النّقد الأدبيّ ومدارسه الحديثة، ستانلي ادغار هايمن (Stanley Edgar Hyman) (ت 1390هـ)، ترجمة إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، ط 1، 1/ 9.

"فكثيراً ما تكون طاقة العمل الفنّيّ أكبر من ذات النّاقد"، بل من خلال بعض الأصول الموضوعيّة العامّة الّتي تعمل ذاته بكلِّ رغباتها وغاياتها من خلالها[5].

ثالثاً: الشُّعراء النُّقاد في العصر العبَّاسيّ:

كان للعصر العبَّاسيّ النَّصيب الأكبرُ من الثَّقافات المتنوِّعة، فكان العبَّاسي الشّاعرُ يجمع بين أشتات الثَّقافة في زمنِهِ، فقد جهد العبَّاسيُّون في نقل تراث اليونان والفرس والهند في العلوم، وأحيَوا التُّراث العربيَّ في الأدب واللُّغة والتَّاريخ والقراءات والتَّفسير والفقه والحديث[6].

فالعصر العبَّاسيُّ عصرُ التَّمازج الفكريّ والثَّقافيّ، نشطت فيه حركةُ التّرجمة والنَّقل، وكانت الحضارات المختلفة روافدَ تصبُّ كلُّها في الحضارةِ العبَّاسيّة النَّاشئة، وظهرت ملامحُ التَّغيير والتّجديد في كلِّ جوانب الحياة العبّاسيّة حتّى العمران الّذي صارت تبدو فيه مظاهر الزَّخرفة، ولم يكن الشِّعر معزولاً عن هذه التَّغييرات؛ في جانب الشّكل، تأثّرت القصيدة العربيّة بمظاهر الزّخرفة، فنحا الشِّعر – ولا سيّما عند أبي تمَّام – نحو ترصيع القصيدة بعناصر التّضاد والتّنافُر أو التَّآلف، كالجناس والطِّباق والمقابلة والتّرادف في الألفاظ والتّراكيب، وأمّا في جانب المضمون، فتأثَّرَ الشِّعر بالحركة الفكريّة المتمثِّلة في تطوُّر الفكر الفلسفيّ حركة الاعتزال وظهور علم الكلام الّذي تأثَّر به الفكر العرَبيُّ، ومن ثَمَّ ظهر أثرُ ذلك كلِّهِ في حركة الإبداع والنَّقدِ معاً.

وقد حاول الأدباء والشُّعراء أن ينهلوا من هذا المعين، ويروُّوا أفكارهم وعقولهم، ويصبُّوا عنايتهم؛ لينالوا حظّاً وافراً من حضارات الأمم الأخرى وأدبِها، فكانوا أدباء بحقٍّ، حتّى وصفهم الدُّكتور طه حسين بأنَّهم جميعَهم علماء[7]، وقد أهَّلهم علمُهم وثقافتُهم الواسعة أنْ يخوضوا غمارَ النَّقد، ولم يكن نقداً ذاتيّاً، إنّما كان نقداً موضوعيّاً منهجيّاً صادراً عن ثقافة واسعةٍ متمكِّنة، معتمداً أحكاماً معلّلةً ومستَنداً إلى أذواق مصفّاة، فانتشرتْ آراؤهم الّتي شكَّلتْ منهجاً نقديّاً يسير عليه من جاءَ بعدَهم.

ومن ذلك يمكننا أن نستخلص الدَّواعي التي جعلت من الشَّاعر ناقداً:

أوّلاً: توافر الثّقافات المتنوِّعة للشّاعر العبّاسي التي أغنت عقلَه، ودعمت فكرَه، فجعلت منه شاعراً ذا ثقافةٍ موسوعيَّة، إن نطقَ، نطقَ عن علم ودراية، فأتاح ذلكَ فهيَّأ لكلِّ شاعرٍ أن يكونَ ناقداً، وأن يلجَ عالم النَّقد من بابٍ واسع.

ثانياً: الشَّاعر هو المُبدِع وناظمُ الشِّعر وصاحبُه، فهو الأجدر بفهم دقائقِه ومقاصدِه، والأعلم برموزِه

---

[5] تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دكتور إحسان عباس (المتوفى: 1424هـ)، الطبعة: الرابعة، 1983، دار الثقافة، بيروت – لبنان،45، 47، بتصرّف.

[6] الشعر العبَّاسي، سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب، 31، 33.

[7] الأدب والنَّقد، طه حسين، المجلد الخامس، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، 1982، 638.

وخفاياه؛ لذلك كان هو الأقربَ إلى ساحة النَّقد، وهذا ما جعل الشّعراء يدخلون عالم النَّقد الأدبيّ.

الفصل الثَّاني: أبو تمَّام ناقداً

أبو تمَّام هو حبيب بنُ أوسِ بنِ الحارثِ بنِ قيسِ بنِ الأشجّ بن يحيى بن مروانَ بنِ مرّ بنِ سعدِ بنِ كاهلِ بنِ عمرِو بنِ عَدّيّ بنِ عمرِو بن الغَوث بن طَيّئ [8].

وكانت ولادة أبي تمام سنة تسعين ومئة، وقيل: سنة ثمان وثمانين ومئة، بجاسم[9]، ونشأ بمصرَ، ولازمَ مسجدَها، يخدم فيه أهلَ العلمِ والأدب[10]، وتوفّيَ بالموصل سنةَ إحدى وثلاثين ومئتين، وقيل: إنَّه توفّيَ في ذي القعدة. : تسع وعشرين ومئتين[11].

قال أبو الفتح بن الأثير في كتاب «المثل السائر»، يصف أبا تمّام والبحتريَّ والمتنبّي: "وهؤلاء الثَّلاثة هم لاتُ الشعر، وعُزَّاه ومَناتُه الَّذين ظهرت على أيديهم حسناتُه ومستحسناته، وقد حوَتْ أشعارُهم غرابةَ المحدثين وفصاحةَ القدماء، وجمعت بين الأمثال السَّائرة وحكمةِ الحكماء، أمّا أبو تمّام فربُّ معانٍ وصيقَل ألبابٍ وأذهان، وقد شهد له بكلِّ معنىً مبتكرٍ، لم يمشِ فيه على أثر، فهو غير مُدافَع عن مقام الإغراب الّذي يبرز فيه على الأضراب"[12]، وقد كان يحفظ أربعةَ آلاف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع[13].

---

[8] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ)، تحقيق إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، 2/ 12، وقد اختلفت الآراء في أصله ونشأته لكنه خلاف غير ذي أثر في موضوعات شعره ولا في نقده.

[9] المصدر السابق، 2/ 17.

[10] أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيرت، الطبعة السابعة عشر، 1989م، 185.

[11] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ)، تحقيق إحسان عباس، 2/ 17.

[12] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: 637هـ)، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة _ القاهرة، 13/1.

[13] شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ)، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ – 1986م، 146/3.

وكان لأبي تمّام مذهبٌ في المُطابق والمجانس اشتُهر به، ونُسِبَ إليه، وعُرِفَ هو به؛ لأنّه فَضَلَ الشُّعراء جميعاً فيه، وأكثرَ منه، وسلك جميعَ شُعَبِه، فهو يغوصُ على المعاني العقليّة غوصاً، ثمّ يرفعها إلى السّماء ويُعمل فيها خيالَه البعيد، ويختار لها الألفاظَ، ويُعنى ببديعِها وجناسِها، حتَّى أصبح مَثار الجدل، ومن جهته انطلقت ألسنةُ النَّاقدين عليه، بحقٍّ أحياناً، وبغير حقٍّ أحياناً أخرى؛ ذلك أنّه بالغ في سلوكِ هذه السَّبيل وأُولِعَ بها، حتّى ليندر أن يخلو بيتٌ له منه، فأوقعَهُ هذا الولوع في التَّعسُّف وارتكاب مَتْنِ الشَّطَط، ولكنَّ الذي لا شكَّ فيه أنَّ الجيِّدَ من شعره كثيرٌ وأنَّه لا يُلْحَقُ غبارُه في جَيِّدِه[14].

ذلك المذهب الّذي اتّخذه أبو تمّام وتلك النّظريّة الّتي تَبنّاها في مجال الإبداع، وظهرت واضحةً في شعرِهِ، أدخلت اسمَه في عالم النَّقدِ وزمرةِ الشُّعَراءِ النُّقاد.

وقد شغل أبو تمّام الأدباء والنّقّاد في حياته، وبعد وفاته نشأت خصومة كبيرة حول مذهبه الشِّعريّ المحدث، فانقسموا بين أنصار وخصوم، وكان للأنصار حججهم في إثبات تفرُّد هذا المذهب، كما ساق الخصوم حججاً أخرى لبيان فسادِه.

وبالنَّظر في مراحل تجربة أبي تمّام الشِّعريّة وبتتبُّعِ بعضِ آرائِه النَّقديّة، نلتَقِطُ بعضَ التّجارب أو التّوجيهات النَّقديَّة الّتي أرى أنَّها أدلَّةٌ على معرفتِهِ بالنَّقد وإلمامِه ببعضِ الآراء النَّقدية، وهذه التّجارب أو الآراء هي:

التَّجربة الأولى: تجربة الاختيارات (الحماسة)، وهي تجربة نقديَّة بحتة: فالاختيارُ عملٌ نقديٌّ؛ لأنَّ هذا الاختيار – بلا شكٍّ – لا بدَّ أن يقومَ على أُسس ومعاييرَ عامّة سائدة في عصر الشّاعر أو ذاتيّة خاصّة من وجهة نظر الشّاعر نفسِه، ومن هنا يمكن أن نقولَ بكلِّ اطمئنان: مارسَ أبو تمّام تجربةَ النَّقد، وأجرى عمليّاتٍ نقديّةً واسعة حتَّى وصل إلى اختياراته الّتي كانت خلاصةَ تلك العمليّات الذِهنيّة الّتي أجراها، ولا يمكن تَصَوُّر أنَّ تلك الاختيارات كانت عشوائيّة، بل إنَّ مثل هذا التَّصَوُّر يناقضُ مصطلح (اختيارات) نفسِه.

التّجربة الثّانية: وصيَّةُ أبي تمّام للبحتريّ الّتي بثَّ فيها آراءً نقديّة، وظهرت فيها مصطلحاتٌ صارت

---

[14] الموازنة بين أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (المتوفى: 370 هـ)، المجلد الأول والثاني: تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف – الطبعة الرابعة، 420/1، بتصرف.

معروفةً في البلاغة والنّقدِ القديم وفي الكتب والتّصانيف في حركة التّأليف البلاغيّ والنّقديّ، مثل مصطلحات (اللّفظ) و(المعنى) و(عمود الشّعر).

التّجربة الثّالثة: نقد أبي تمّام في شعره.

أوّلاً: وصيّة أبي تمّام:

قال الوليد بن عبيد البحتريّ: كنت في حداثتي أروم الشّعر، وكنت أرجع فيه إلى الطّبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه، حتّى قصدت أبا تمّام، وانقطعت فيه إليه، واتّكلت في تعريفه عليه، فكان أوّلَ ما قال لي: "يا أبا عبادة، تخيَّر الأوقات، وأنت قليل الهُموم، صفراً من الغُموم، واعلم أنَّ العادة جرَتْ في الأوقات أن يقصد الإنسانُ لتأليف شيء أو حفظه في وقت السَّحر؛ وذلك أنَّ النَّفس قد أخذت حظَّها من الرَّاحة، وقسطَها من النَّوم، وإن أردتَ التَّشبيبَ، فاجعل اللَّفظَ رشيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثِرْ فيه من بيان الصَّبابة، وتوجُّع الكآبةِ، وقلقِ الأشواق، ولوعةِ الفِراق، فإذا أخذتَ في مديح سيّد ذي أيادٍ فأشهِرْ مناقبَه، وأظهِرْ مَناسبَه، وأبِنْ معالمَه، وشرف مقامه، ونضِّد المعاني، واحذر المجهولَ منها، وإيّاك أن تَشينَ شعرَك بالألفاظ الرَّديئة، ولتكن كأنَّك خيّاط يقطع الثِّياب على مقاديرِ الأجساد، وإذا عارضك الضَّجَرُ فأرح نفسَك، ولا تعمل شعرِك إلّا وأنت فارغُ القلب، واجعل شهوتَك لقول الشِّعر الذَّريعةَ إلى حسن نظمِه؛ فإنَّ الشَّهوةَ نعم المعينُ، وجملةُ الحال أن تعتبر شعرَك بما سلَفَ من شعر الماضين، فما استحسن العلماءُ فاقصدْه، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله[15]".

تبرز هذه الوصيّة سعة علم أبي تمّام ونصاعة تفكيره وثقافته النّقديّة، وإذا أردنا أن ننظر إلى الوصيّة من وجهة نظر النّقد الأدبيّ فإننا نرى فيها جملةً من الآراء النّقدية التي ساقها أبو تمّام بأسلوب النّاصح المرشد، ومن ذلك:

1. اقتصرت الوصيّة على غرضين، وبيّنت ضوابطهما اللّفظيّة والمعنويّة، هما (المدح)، و(الغزل)، وهنا يحقُّ لنا أن نتساءل: لم اقتصر أبو تمّام على ذكرهما في حديثه مع البحتُريّ، وأغفل ذكر الأغراض الأخرى كالرّثاء والهجاء؟!.

تفسيرُ اقتصار أبي تمّام على ذكر هذين الغرَضين في وصيّته هو ذلك الارتباط المتين بين الغزل والمدح،

[15] زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (المتوفى: 453هـ)، دار الجيل، بيروت، 152/1.

فهو ارتباطٌ نمطيٌّ تقليديّ في بناء القصيدة العربيّة، ففي البناء التّقليديّ للقصيدة العربيّة، ما من قصيدة موضوعُها المديح إلّا تبدأ بمقدّمةٍ غزَليّة، فأرى أنّه من المُمكن القول: إنَّ أبا تمّام أراد قصيدة المديح الّتي تُفتَتحُ بالنَّسيب، ثمَّ ينتقل الشّاعر فيها إلى مدح من يريد مدحَه، ومن ثَمَّ بنى أبو تمّام نصيحتَه النّقديّة للبحتريّ على النَّظر في حال المتلقّي، فقصيدة المدح موجَّهة إلى الخلفاء والأمراء والوجهاء ومن هو في منزلتهم، وهؤلاء ذوو ثقافة عالية وأصحابُ نظرٍ في الشِّعر، ولذلك فإنّه لا بد من مراعاة الموقف بعناية، وانتقاء الألفاظ بحسّ عالٍ، ولا شكَّ أنَّ أبا تمّام صاحب تجربة، وهو الّذي قطَعَ شوطاً في مجال الإبداع، فقدَّمَ خلاصةَ تجربتِهِ للبحتريّ، وبهذا صارت تجربته الإبداعيّة الشّعريّة أساساً لهذه الوصيّة النّقديّة، فأبو هنا ينصحُ البحتريّ بما يجري عليه أبو تمّامٍ نفسُه عندما ينظمُ الشّعرَ، ويُبدِعُه، ولعلّنا نحفظ القصّة الّتي تُروى عنه حين مدح المعتصم، فلمّا وصلَ إلى قوله:

إقدام عمروٍ في سماحةِ حاتمٍ في حلم أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

قيل له: الأميرُ فوق من ذكرت، فأطرَقَ هنيهة، ثم استدرك قائلاً:

لا تُنكروا ضَربي له مَنْ دُونَهُ مثلاً شروداً في النَّدى والباسِ

فالله قد ضَرَبَ الأقلَّ لنورِهِ مثلاً من المِشكاة والنِّبراسِ

إذن فأبو تمّام صاحب تجربة في ذلك، وقف بين أيدي الخلفاء والأمراء مادحاً لهم، على مسمع من عِلية القوم وصفوةِ الأدباء والنُّقّاد والشُّعراء، الّذين كانوا رقباء على كل صورة ترد لديه، وكلِّ لفظ يستعمله، ولذا فإنه حين ينصح ينصح من وحي هذه التَّجربة، وهذه المواقف التي مرَّ بها.

ومن جانب آخر فإنَّ أغراض الشِّعر الأخرى كالرِّثاء والهجاء والفخر لها ما يثير أسبابها في نفس الشَّاعر ويهيِّئُهُ لها، أعني بذلك لوعة الفقد في الرثاء، والامتلاء غيظاً على الخصم في حالة الهجاء، والإعجاب بالذَّات في حالة الفخر، فهذه الأغراض لها ما يحرِّكُها من المشاعر، وكذلك الغزل عندما يصدر عن عاطفة حقيقيّة، تكون تلك العاطفة أعظمَ محفِّزٍ على القول، بخلاف المدح الّذي ربّما لا يكون المحرّك الحقيقيُّ له الإعجاب بالممدوح فعلاً، ويكون الدَّافعُ إليه الرَّغبة في عطاء الممدوح، وهذا وحده ربّما لا يكفي لتهيئة الشَّاعر نفسيّاً لقول الشِّعر، ولذا نجد أنَّ أبا تمَّام قد أدرك ذلك بعمق، وعوَّضَ عن ذلك بأمور أخرى، هي الرَّاحة البدنيّة وصفاء البال، وهما أكثر ما يكونان صباحاً، وهو في ذلك مصيب كلَّ الإصابة.

وما أريد قوله هو أنَّ أبا تمّام – بنصيحته هذه – كشف عن ناقد نافذ البصيرة، دقيق النَّظر، فقد أدرك أنَّ ما يسمَّى بالمَلَكة أو الموهبة ليسَ كافياً وحدَه، ولا بدَّ من عوامل أخرى، هي الّتي أشار إليها بدقّة، وهو وإن لم يكن أوَّلَ من أشار إلى هذا، إلَّا أنّه أمعن في توصيفها بدقّة، وأكَّد أنَّ التزامها أمرٌ لا بدَّ منه إذا ما

أراد الشّاعرُ أن يُنتج نصّاً شعريّاً على مستوى يؤهِّلهُ لأن يُلقى بين أيدي الخلفاء والأمراء ومجتمع العلماء والمثقَّفين.

2. يقول أبو تمام: "وإن أردت التّشبيب فاجعل اللَّفظ رشيقاً، والمعنى رقيقاً": يشترط أبو تمّام إن كان الشِّعر في النَّسيب أن يكون اللَّفظ رقيقاً، بعيداً عن الألفاظ الثَّقيلة على السَّمع والقلب، أمَّا المعنى فشرطُهُ: الرّشاقة والخِفّة والانسيابيّة، ومع الرَّشاقة لا بدَّ من متطلّبات أخرى تتعلّق بالمعاني الجزئيَّة: إظهار الصّبابة، وتوجُّع الكآبة، وقلق الأشوا، ولوعة الفِراق.

وهنا يقفنا أبو تمام على صناعة الشِّعر خطوةً خطوة، على مستوى اللَّفظ والمعنى والعاطفة أيضاً، فهو يرشد البحتريَّ إلى المشاعر الّتي يجب أن يظهرها في شعره، ويشبِّه هذه العمليّة بعمليّة الخياطة، والخياطة – كما نعلم – عمليّة دقيقة، ولا سيّما إذا كان هذا المخيط مقدّماً لذوي الأذواق العالية، ممّن لا يفوتهم أن يدقِّقوا في تناسب الألوان وتناسقها، وفي جمال التّصميم ودقة الحَبْك والتأليف بين أجزاء المَخيط، وسائر ما يُراعى في مثل هذه الحرفة.

3. "وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين": يوصي أبو تمَّام البحتريَّ بالسّير على مذهب القدماء في قول الشّعر (عمود الشّعر) في اللّغة والمعنى والصّورة وبناء القصيدة، وأن يفيد من تجربتهم، وما قيل في شعرهم من مدح أو ذم.

4. وعليه فإنّ هذا النص يظهر لنا أبا تمام شاعراً ناقداً، أو ناقداً شاعراً، يرسمُ لتلميذه منهجاً متكاملاً لقول الشِّعر؛ ليكون خالياً مما يعاب عليه، وقف فيه ابتداء عند الحالة النّفسيّة للشّاعر، وبيَّن له متى يجب أن يقول الشِّعر، ومتى يكون وقت قوله، فهو الطَّرف الأهمُّ في هذه العمليّة، ولا بدَّ من أن يهيِّئَ نفسَه وذهنَه للقول قبل الشُّروعِ فيه، وهو ما عبّر عنه بـ"الشَّهوة" إلى قول الشِّعر.

وأما الطَّرف الثّاني وهو النَّص نفسُه فقد شبَّهه أبو تمّام بالصِّناعة، مبتعداً في ذلك عن أيّ إشارة إلى الطّبع، معبّراً عن تجربة شخصيّة في ذلك، فأبو تمام أبو الصناعة الشِّعرية – كما يرى النُّقّاد – والشِّعر عندَه حرفةٌ وصنعة، لا بدَّ أن يكونَ الشّاعرُ الحقيقيُّ من حُذَّاقِها، والبحتريُّ شاعر الطّبع، ولعلَّ الأستاذ لمس ذلك في تلميذه، فأراد أن يغيِّر في منهجه وطريقته أو مذهبِهِ في الشّعر، فكأنَّ أبا تمّام على قناعة أنَّ الصِّناعة خيرٌ من الطَّبع، ولا سيّما أنه أشار في آخر كلامه إلى أهميّة النَّظر في نتاج السّابقين، وأوصى تلميذَه أن يطرح ما لم يستحسنه السّابقون، ويتمسَّك بما أشادوا به، وهو ما يمكن أن نجعله الطَّرف الثَّالث في نظريّة أبي تمّام الشِّعريّة، وهم الرُّقباء من النُّقاد وأذواق الأوَّلين، ومراعاة ذوق المتلقِّي.

ثانياً: حماسة أبي تمَّام:

كان أبو تمام عالماً مفكِّراً قبل أن يكون شاعراً، ساعده علمه في الإحاطة بالثّقافة الأدبيّة من شتّى جوانبها، وكان من ثمرة ثقافته الواسعة وعلمه بأشعار العرب ومعرفة جيِّدها ورديئها كتاب (الحماسة)، الّذي يشير إلى أصالة الشّاعر، وغزارة فضله، وإتقان معرفته بحسن اختياره، وتمسُّكه بالقديم، وعدم رفضه له، فأبدع في حماسته، وسار على نهجه الشُّعراءُ من بعده وفي مقدِّمتهم البحتريّ.

أهميَّة حماسة أبي تمَّام: لمَّا كان شعر العرب بحراً لا ينضب، حتى إذا أراد أحدهم أن يبحث عن شعرٍ في غرضٍ ما تراه يمضي الأيّام واللّيالي باحثاً ومنقِّباً، تعاظمت الحاجة إلى كتاب يجمع بعضاً من شعر العرب، مدرَجاً ضمن أبواب تحمل أغراض الشِّعر ومقاصده، وتعين الباحث على الوصول إلى بغيته بأقلِّ وقتٍ وجهد، وهذا ما نهضَ به أبو تمَّام في كتابه الحماسة، وهو أجدر من تصدَّى لهذه المهمَّة، فهو الشَّاعر النَّاقد، وقد كُتب له السَّبق لمَّا جمع ضروباً من الفنون الشِّعريّة؛ مثل وصف المعركة، والفخر بالشّجاعة، تحت فنٍّ جديدٍ سمَّاه "الحماسة".

يقول التِّبريزيُّ في مقدِّمة شرح الحماسة: "فَكَانَت الْحَاجة ماسّة إِلَى مَجْمُوعٍ يقوم مِنْهَا مقَام الْخُلَاصَة، وَلم نجد من ذَلِك أحسن وَلَا أوفى من كتاب الحماسة الَّذِي اخْتَارَهُ ملك الْكَلَام أَبُو تَمام، فقد كَانَ للرَّجل من المحفوظات مَا لَا يلْحقهُ فِيهِ غَيرُه، وَعدا أَنه شَاعِر بَصِير بمحاسن الْكَلَام وعيون النظام، خَبِير بِالنَّقْدِ ومضطلع بِهَذَا الْفَنّ، وَلِهَذَا عد جَمِيع الأدباء كتاب الحماسة الْمَذْكُور أفضل كتاب مَجْمُوع من شعر الْعَرَب"[16].

منهج أبي تمَّام في الحماسة: إنَّ أوَّل ما يذكر في حماسة أبي تمَّام، أنَّه خالف منهجه في الشِّعر فيها، فهو شاعرٌ محدث، له طريقته الخاصَّة في الشعر، فهو يكثر من الصور وألوان البديع، ويتطلب الغريب في توليد معانيه وألفاظه، ولكنَّه في حماسته كان يعمد إلى الشِّعر القديم، ويختار المقطَّعات ويصنِّفها حسب ما يلزم.

ومما نهجه أبو تمَّام في حماسته أنَّه لم يكن ينتقي الشُّعراء المشهورين، ويذكر أشعارهم، بل كان يعمد – في الأغلب – إلى أناس مغمورين من شعراء الجاهليّة والإسلام، ويرشده في تصنيفهم

[16] شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس ت 231 هـ)، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: 502هـ)، دار القلم – بيروت، 3.

والتَّعليق على أشعارهم ذائقتُه الفنِّيَّة والنَّقديَّة، فكان أبو تمام بذلك رائداً كثُر مقلِّدوه دون أن يبلغوا شأوه[17].

أخذ أبو تمّام أشعار الحماسة من الكتب، وانتقاها من الدَّواوين والمجاميع[18]، ولم يكن ناقلاً أو راوياً فحسب، إنّما كان إن وقف على البيت الجيّد فيه لفظة تشينه يجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأخرى ترتفع إلى مستوى جودة البيت بأكمله، وقد أجمع العلماء على تزكية أبي تمّام في الحماسة ونصوصِها، حتّى قيل: إنَّ أبا تمّام في اختياره أشعر منه في شعره.

وقد وظَّف أبو تمام جلَّ ذوقه الفنِّي والنَّقديّ في اختيار أشعار الحماسة، حتّى غدت شاهداً على تمتُّعه بالحسَّ النَّقديّ والذَّوق الفنّيّ الكبيرين.

ثالثاً: نقد أبي تمّام في شعره:

أبو تمام شاعرٌ لديه حسٌّ فلسفيٌّ منطقيّ، عقليّ، فهو يُفلسف بعض قضايا النّقد من خلال القصائد نفسها، فإذا قرأنا شعرَه يمكن أن نستخرج منه كثيراً من الأحكام النّقديّة، من ذلك قوله واصفاً بلاغة الحسن بن وهب:

ثَبْتُ البَيانِ إذا تحيَّرَ عاقلٌ أضحى شِكالاً للّسانِ المطلقِ
لم يتَّبِع شَنِعَ اللُّغات ولا مشى رسْفَ المُقيَّدِ في طريق المنطقِ
في هذه قسم الكلام وهذه كالسُّور مضروباً له والخندقِ
يجني جناة النَّحلِ من أعلى الرُّبا زهراً ويشرعُ في الغدير المُتأقِ
أَنُفُ البلاغة لا كمن هو حائرٌ متلدِّدٌ في المرتع المتعرِّقِ

فأما ثبت البيان فإنما أراد أنَّه يُسكت كلَّ قائلٍ متكلمٍ ويُفحمه، فليس بالمضطرب ولا المتلعثم الذي يجهد نفسه ويكدُّها، فإن ضاقت مسالك الكلام ومنافذه على الفصيح العاقل، وجدته قد أطلق العنان

(17) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دكتور إحسان عباس (المتوفى: 1424هـ)، الطبعة: الرابعة، 1983م، 72. بتصرّف

(18) مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة 1988م، 583/1.

لطبعه، فتنساق المعاني إليه دونما تكلُّف ولا تصنُّع، والبيت الثّاني أظهرُ لهذا المعنى[19]، يقول التبريزي في شرحه: "وصفه بالفصاحة والمعرفة بمباني الكلام، وكأنَّه في هذا البيت عرَّض برجلٍ من الكتّاب يتكلَّم المنطقَ؛ أي: هو يأخذ نفسه بالكلام الفصيح السَّهل، لا كمن يتكلَّف أن يجري كلامُه على ما يوجبه المنطق وحدودُه، وليس بمطبوعٍ على البلاغة، فتتبيَّن سوء الصَّنعة"[20].

والدَّراس للشّواهد الشّعريّة عند أبي تمّام يلاحظ أنَّ أبا تمّام في قضيّة نقده لقصائده، أو تقويمه لغيره، ينظر بعين النّاقد المتبصِّر، ولقد جاءت كتب نقد الشِّعر من بعده، ولم يمضِ أحدُها دون أن يتحدَّث عن النّواحي الّتي تكلَّم عنها أبو تمام في نقد الشِّعر، حديثٌ قد يطول عن هذا وقد يقصر، ولكنّه لا يخرج عن حدوده، ولا يبلغ جماله[21].

الخاتمة:

كان للحياة العقليّة الجديدة، وللثّقافات المترجمة الّتي انتقلت إلى اللّغة العربيّة، ولتأثيرات الحياة الاجتماعيّة في النّفوس والأذواق والعقول، وللمدارس العلميّة، والمذاهب الفكريّة، والعقائد، آثارُها البعيدة في الأدب العبَّاسيّ، وكان لها الدَّور الكبير في تطوّر ظاهرة الشّعراء النُّقّاد، فقد تعمَّق أثرهم، ومضوا في النَّقد خطواتٍ لا يمكن تجاهلها في عمليّة النَّقد الأدبيّ عبر العصور، فأثبتوا جدارةً، ووضعوا بصمةً لا تنسى، وكان من هؤلاء أبو تمّام، فإنَّ جهوده ووصيّته للبحتري وفعله في الحماسة ومسيرته الشّعرية والنَّقدية لا تُنسى آثارُها، ولا يُنكر فضلُه في ذلك ولا مكانته في حركة النّقدِ في مرحلةٍ من مراحل تطوُّره، فقد مثَّل شخصية الشَّاعر النَّاقد تمثيلاً دقيقاً ناجحاً.

[19] الشاعر أبو تمام مثقفاً ومبدعاً، فيلالي عراس، (مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي القديم ونقده)، 2010م_2011م، 75.

[20] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، الطبعة الرابعة، 1/ 147.

[21] أبو تمام: حياته وحياة شعره، محمد نجيب البهبيتي، دار الفكر، 241، بتصرف.

النتائج والتوصيات:

المصادر والمراجع:

1. الأدب والنَّقد، طه حسين، المجلد الخامس، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، 1982م.
2. أدب الكتاب، أبو بكر محمد بن يحى الصولي (المتوفى: 335هـ)، نسخه وعنى بتصحيحه وتعليق حواشيه: محمد بهجة الأثري، ونظر فيه علامة العراق: السيد محمود شكري الآلوسي، المكتبة العربية – ببغداد 1341، عدد الأجزاء: 1.
3. أبو تمام: حياته وحياة شعره، محمد نجيب البهبيتي، دار الفكر.
4. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دكتور إحسان عباس (المتوفى: 1424هـ)، الطبعة: الرابعة، 1983، دار الثقافة، بيروت – لبنان.
5. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، الطبعة الرابعة.
6. زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (المتوفى: 453هـ)، دار الجيل، بيروت، عدد الأجزاء: 4.
7. الشاعر أبو تمام مثقفاً ومبدعاً، فيلالي عراس، (مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي القديم ونقده)، إشراف د. دياب قديد، 2010م_2011م.
8. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ)، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م، عدد الأجزاء: 11.
9. شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس ت 231 هـ)، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: 502هـ)، دار القلم – بيروت، عدد الأجزاء:1.
10. الشعر العبَّاسي، سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب، 1979م، عدد الأجزاء 1.

11. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: 637هـ)، أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة، عدد الأجزاء:4.

12. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م، عدد الأجزاء: 1.

13. مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة 1988م.

14. الموازنة بين أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (المتوفى: 370 هـ)، المجلد الأول والثاني: تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف – الطبعة الرابعة، عدد الأجزاء: 3.

15. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1414 هـ، عدد الأجزاء: 15.

16. النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ستانلي ادغار هايمن (Stanley Edgar Hyman) (المتوفى: 1390هـ)، ترجمة: إحسان عباس، الطبعة: الأولى، دار الثقافة – بيروت – لبنان، عدد الأجزاء 2.

17. النَّظرية والتجربة عند شعراء العصر العبَّاسي، عبد الله التطاوي، دار غريب القاهرة، 1999م.

18. النقد الأدبي ومقاييسه خلال عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر الخلافة الراشدة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الخامسة عشرة. العدد الثامن والخمسون. ربيع الأخر–جمادى الأولى–جمادى الأخرة 1403هـ، عدد الأجزاء: 1.

19. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ)، إحسان عباس، دار صادر – بيروت، عدد الأجزاء: 7.